﴿ استنهاض همم ﴾

(٤)

هل نقلت من حبالة المسئلة الشرقية شعب من شعوب الشرق ؟

نعم قد نقلت من اطماع أوربا وتخلص من نير تغلبها أمة حديثة في نشأتها حكيمة في حزمها وتدبرها وهي أمة اليابان ونهضت نهضة الاسد من عرينه فأماطت غشاوة الجهل عن عينيها ونزعت رداء الكسل عن منكبيها وقرنت العلم بالعمل وجمعت بين الارادة والسعي في انجاز المراد وانفاذه فاقتبست من أوربا فنونها وآدابها النافعة وأعرضت عن مقاذرها ورذائلها الفاضحة فلم يمض عليها نصف قرن حتي أمر (عظم) امرها وعظم شأنها وعدت في مصاف الدول العظمي وسميت بانكلترا الشرق وقدأمست دول أوربا تتوقى ضيرها وتتوخي خيرها وتخطب مجاملتها وتود محالفتها . يكفيك انها قهرت الصين الضخمة وهي منها بمنزلة الواحد من العشر بل الالف من الصفر (كذا) ولعمري ان الاصبع الواحدة السليمة تقاوي عشرا من الاصابع المشلولة ولو عززت بالذراعين

وهناك دولة أخرى من دول الشرق وهي وان لم تكن كهذه في التمدن وحسن الانتظام واقتباس اساليب الحضارة الاوربية لكنها يوشك ان تأمن على استقلالها وتحافظ على مركزها وتستبد بادارة شؤنها الداخلية والخارجية وهي امة الاحبوش فان ذلك الشعب تحرشت به دولة ايطاليا وهي دولة متمدنة منظمة وهو شعب فيه توحش وعلى غير نظام فعاثت في اطراف بلاده وعبثت بحقوقه السياسية ولم تبال بحرمته تصمد اليها وصدمها صدمة زحزحتها عن موقف ثباتها وكادت تقضي على قوتيها العسكرية والمالية فانسلت

من بلاده صاغرة انسلال الافعى من جحر الورل (١) ولما رأت أوربا منه ذلك وانست منه الرشد وتوسمت فيه القوة ومنعة الجانب وأحست بأن في نفسه شيئاً من الشهامة وفي دمه بقية من النخوة والحمية عرفت ذلك له وحادت عن طريقه وهابت التعرض له وخلت بينه وبين نفسه حاسبة ان تلك المزايا التي فيه والاخلاق الشريفة التي قامت بنفسه كافية لسوقه الى المدنية وحمله على تناول العمران الاوربي وهصر افانينه واقتباس فنونه وطفقت الدول من يومئذ تتزلف الى ذلك الشعب وتدلي اليه بالوسائط المختلفة . انكلترا تمت اليه بالجوار ووحدة المصلحة في دفع غارة المهدويين أعدائها وأعدائه وصد هجمتهم وفلّ غرارهم وروسيا وفرنسا تمتان اليه بوحدة المذهب واشتباك الطقوس الكنائسية (كذا) وفائدتها من امداده وارفاده واتخاذه ظهيراً لهما على مساورة انكلترا في ضفاف النيل ومقاومة نفوذها ثمه . الا ان في بلاد الاحبوش رؤوساً وقواداً تتكالب على تسنم الرئاسة واحزاباً سياسية كل حزب يعضد رأساً من تلك الرؤوس ويقوم معه في منازعه المساهل الاكبر (النجاشي) زمام السلطة والامر . وهذا ولا ريب يضعف البلاد قليلاً قليلاً ويباعد بين قلوب رجال الشعب ويمد لسلم مكروب الداخلة الاجنبية فيه ويوقعه تحت احكام مسألتنا الشرقية ومن متناولات فروعها اللهم الا ان يقال ان الدين مهما تضاءل اثره في اعمال دول اوربا وضعفت عوامله في افكار ساستها لابد ان تكون له في بعض الاحايين صولة على السياسات فيصرف مهابها وسلطة على القلوب والنفوس فيبث بعواطفها واميالها فالدين الذي شدت اواصر تعاليمه

(١) ضرب من الحيوان الطوائر والسباع لافقسها والورل بالتحريك دابة كالضب أو العظام من اشكال الوزغ وهو العدو للافعى فانه يأكلها اكلا ذريعاً

بين الشعب الحبشي والشعوب الافرنجية وتوثقت وشائج طقوسه بين الكنيسة ورجال الاكليروس من القبيلين جدير بان يشفع بالامة الحبشية لدى دول أوربا ويثير في نفوس تلك الدول عواطف الرأفة والحنان عليها فتمهلها لبينما تهب من الرقدة وتستأنيها ريثما تستقيم على الطريقة بل ربما تواطأت الدول على ارفادها وموازرتها بالاموال والدثور وتبرعت بانشاء مدارس وكليات لتهذيب ابنائها وناشئتها ومتاحف وكتبخانات لتثقيف عقول طلبتها وتخريج شبانها كما يصنع بعض الدول لهذه الآونة في امة اليونان وشعوب البلقان

هل ابتدأ العمل بالمسئلة الشرقية ومناجزة اهل الشرق في هذه الاعصر المتأخرة ام كان الشروع قبل ذلك ؟

حدثت مناوشات عديدة بين الفريقين في القرون الوسطى كان أمرها سجالا . وأعظم تلك المناوشات واظهرها اثراً وابعدها ذكراً واشدها صدى ودوياً في بطون التواريخ حملتان صادقتان بل بركانان منفجران وقد انجحت احدى هاتين الحملتين واخفقت الاخرى . اما الحملة المنجحة فهي حملة الشعب الاسبانيولي على عرب الاندلس واجلائهم عن تلك البلاد بمدرسوخ قدمهم في ترتبها قرابة عشرة قرون . وتلك الحملة وان تكن دينية النزعة فان فيها شوباً من النزعات السياسية وعليها مسحة من الحقوق الدولية . وأما الحملة الاخرى التي اخفقت فهي حملة دينية محضة لاشائبة للمنازع السياسية فيها يدلك على هذا ان الذين حضوا نارها واثاروا غبارها انما هم رجال الدين وحزب الكهنوت وتلك الحملة هي حملة امم اوربا على مسلمي فينقية وفلسطين . تداعت شعوب الافرنج الى تلك البلاد من كل صوب ونسلوا

اليها ارسالا من كل حدب واغاروا عليها بقضهم وقضيضهم (١) او شابا (٢) من اجناس مختلفة واروم متباينة حتي اصبحت سواحل البحر المتوسط لذاك العهد كارض بابل مذ تبلبلت فيها الالسنة وتفرقت اللغات وبعد طول مراس وعراك بين تلك الشعوب واهالي البلاد تكصوا بالخذلان وباؤا بالخيبة والخسران ومهما كان من شأن هاتين الحملتين وما حدث فيهما من اراقة الدماء وازهاق النفوس فان بعض حذاق المؤرخين يذهب الى ان ماحصل في اصقاع الغرب من الانقلاب الفلسفي والسياسي والمذهبي وما اعقب ذلك من الاصلاح العام في سائر الاوضاع والاعمال والشؤون انما نشأ عن تينك الحملتين ونتج من مخالطة امم اوربا للمسلمين واشرافهم على مجارى اعمالهم في السياسات واطوارهم في الادارات ووقفوا على طرائقهم في الصناعة والزراعة وأساليبهم في الفنون والمعارف فتخيروا من فسائل حضارتهم أجودها وأنضرها وغرسوها في تربة بلادهم وسقوها من عرق جبينهم فنمت وربت وأثمرت من كل زوج بهيج *وكأن اهل الغرب قبل ان يظمئوا من ربوعنا تقصوا كل جراثيم العمران فيها وتأثروا كل وسائل المدنية التي بين أهليها فسلبوهم (واحرباه) اياها ثم تحملوا واستقاروا بها الى اوطانهم

اراك تتلع وتتشوف الى معرفة الاسباب التي قضت بنجاح حملة الاندلس وخيبة حملة فلسطين

---

(١) جاء القوم قضهم (بفتح القاف وكسرها وفتح الضاد وضمها) وقضيضهم أي جميعهم كما يقال جؤا عن بكرة أبيهم وقيل القض الحصى الصغار والقضيض الكبار أي بكيرهم وصغيرهم وقيل الاول بمعنى القاض او الثاني بمعنى المقضوض من قض الجيل عليهم اذا ارسلها ويقال قضهم بالفك ويقال جاؤا قضيضهم (٢) اخلاطاً ليسوا من جنس واحد

الذي مكن يد العدو من مسلمي الاندلس انما هو انغماسهم في الترف واكبابهم على الشهوات وتخاذلهم في الموازرة وتواكلهم دون النجدة ومناواة أولي الامر بعضهم بعضاً وتحرش المحاظي وحاشية القصر باعمال الادارة والسياسة وقيام كل امير في صقع يدعي الخلافة ويجاذب الآخر زمام السلطة والرئاسة

وتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيها امير المؤمنين ومنبر

بل بلغ بهم السفه والخرق الى ابعد مما استفظعه شاعرنا فان آخر مدن الاندلس سقوطاً في يد العدو وهي غرناطة كان العدو محدقا بها من الخارج متكالباً على نهشها عاملا في تقويض اسوارها وافتتاحها واجلاء اهلها وهل تعلم ماذا يصنع جندها ومقاتلتها في داخلها ؟ لعلك تسارع وتجيب لاشأن لهم الا الاستبسال في الدفاع واستفراغ الجهد في حماية الحوزة والاستماتة في صيانة الشرف والحريم بل يمثل لك الخيال ان سكان هذه المدينة في تلك السويعة شاكيهم واعزلهم ذكرهم وانثاهم تألبوا على قلب رجل واحد وتراكضوا الى الاسوار مصلتين سيوفهم مشرعين رماحهم يكادون من شدة تغيظهم وفوران دم النخوة والحمية في عروقهم يلقون بانفسهم على عدوهم يمضغون لحمه ويرشفون دمه . نعم ان ذلك العمل الشريف لجدير بان تأتيه شرذمة مقتطعة من اخوانها مختزلة عن سائر بني جنسها منتبذة في ناحية عن اهل ملتها . جدير بان تأتيه شرذمة أوشكت تغادر معاهد دينها وأضرحة عظمائها وأبطالها ومعالم مدنيتها وعمرانها لوطء اقدام عدوها وعبث يده الجائرة . جدير بان تأتيه شرذمة استنزلها الدهر على حكمه ونزع عنها لباس عزها ومجدها وسلبها تراث آبائها واجدادها ومكن يد العدوّ من نواصي اوطانها . جدير

بان تأتيه شرذمة هي بقية ملايين من ابطال المسلمين وغطاريفهم عمروا تلك البلاد وتكوّنوا من ترابها واقتبسوا ارواحهم من هوائها. نعم نعم ذلك جدير بهم حق عليهم لو كانوا يفعلون . اسمع ـ كان العدو يصطدم بأسوار المدينة من خارجها والاهالي داخلها يتخالسون مهجاتهم ويسفكون دماءهم بايديهم ذلك انه كان في غرناطة لذلك العهد حزبان ـ اهل المدينة حزب وأهل البيازين وهي محلة كبيرة من محلات غرناطه حزب آخر وقلما يتفق الحزبان على بيعة خليفة واحد فمن جري ذلك كانت غرناطة لاتخلو من استشراء الفتن (١) واستعار نار الثورات فيها حتى كان ذلك اليوم العصيب الذي احدق فيه العدوّ بالمدينة واخذ يناطح أبراجها فلم يلقهم ذلك عن المناهدة (٢) والمناصاة (٣) والمواثبة ولم يكن كافيا لجمع أهوائهم وتوحيد مشاربهم ريثما يدفعون بصدر العدو عن عقر دارهم (٤) فامتشقوا الصفاح وقوموا سمر الرماح ونشبت بينهم في شوارع غرناطة وساحاتها وأرباضها ملحمة بيعت فيها الارواح بيع السماح . ماذا اصاب هؤلاء القوم يارب ؟ ماالذي فتّ في أعضادهم ماالذي طأطأ من اعناقهم ماالذي سلبهم مزايا اجدادهم ماالذي اذال (اهان) نفوسهم وطأمن من اشرافها ماالذي تلاعب بطبائعها وأوصافها ؟ اي شيء طرأ على ارواح أولئك القوم حتي غير تكوينها ؟ اي شيء لابسها حتى كاد يمسخها ؟ اليست هذه النفوس نفحات منبثقة من نفوس أولئك الفاتحين فماالذي دنسها ؟ اليست هذه الارواح انوار مقتبسة من ارواح اجدادنا الاولين فما الذي اطفأها ؟ تبارك شأن الله وتنزهت صفاته حكيم فطر هذا الكون على

(١) اشتدادها وانتشارها (٢) قصد العدو والوثوب اليه وانما كان يناهد بعضهم بعضاً لاعدوهم الحقيقي (٣) التماسك بالنواصي (٤) وسطها

سنن ونواميس مطردة فان تتبدل . عادل وضع لسير هذه الخلائق احكاماً متسقة فلن تتخلف سبحانه ماجل شأنه . ذلك ياأخي قصص مسلمي الاندلس فكف من عبراتك . ونهنه من زفراتك . وسل الله الحماية . من امثال هذه الغواية .

آثار علمية

(الطاعون واتقاؤه)

ان الطاعون يعد من الحميات الخبيثة الضعفية وأظهر مايستدل الناس به عليه دبول في الجسد وجمرات على الجلد ولكن الاطباء يعتمدون اليوم على مكروبه فمتى وجدوا هذا المكروب في مصاب جزموا بانه مطعون . وهو يبتدئ عادة كما يبتدئ اكثر الحميات بتعب وضعف في القوى وتشمرير وغثيان ووجع في الرأس مع دوار وشعور بثقل فوق المعدة ثم يسخن الجلد ويشتد العطش وتخبث رائحة النفس وربما قيأ العليل قيئاً اسود اللون وربما أصابه رعاف فنزل الدم من أنفه ويغلب الذرب في معدته على القبض ثم لايمضي على ذلك بضعة أيام حتى تظهر أورام غدية في العليل تسمى بالدبول ويغلب ظهورها في الرقبة والابط والارية وتظهر الجمرات بعدها على اقسام متعددة من الجسد وهذا الطاعون هو المشاهد في الاسكندرية الآن وهو اقل شراً واخف وطأة من الطاعون الذي لاتظهر الدبول فيه لان الاول يعدي بالملامسة فلايتفشى ولايكثر انتشاره بخلاف الثاني فانه يعدي بالملامسة وبلاملامسة فهو شديد التفشي كثير الانتشار

وقد ثبت قديماً وحديثاً ان الطاعون يزداد انتشاراً غالباً في البيوت الواطئة المزدحمة الفاسدة الهواء الحارة الرطبة حيث تكثر القاذورات والمفضلات الحيوانية والنباتية الفاسدة وان معظم الذين يصابون به يكونون من الفقراء الذين لاتغتذي ابدانهم بما يكفيها او بما يلائمها من الطعام حتى لقد سمي في بلاد الانكليز قديماً بوباء الفقراء . وأما الذين يعتنون